صورة المرأة الأندلسية من خلال كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الأندلسي (ت456هـ/ 1064م)

الطالبة الدكتورالية رقية بن خيرة، جامعة معسكر

تمهيد

شكلت المرأة عبر الحقب التاريخية المختلفة عنصرا فاعلا له مكانته وأدواره ليس على الصعيد الاجتماعي فحسب وإنّما لاتساع أدوارها الممتدة للصعيد السياسي والاقتصادي وحتى الثقافي والفكري، لذا انكب عدد من الباحثين والدارسين على دراسة وضعيتها وتقصي أخبارها، إذ عدت قضاياها من أهم القضايا المطروحة للبحث والدراسة، وحال المرأة الأندلسية يمكن إدراجه ضمن هذا الإهتمام الذي أراد إماطة اللثام عن أحوالها من خلال ماحفظته ذاكرة الأمة ووعته سجلات الزمن، ونحاول من هذه الدراسة البحث في واقعها من خلال كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف؛ فما هي الصورة التي رسمها ابن حزم للمرأة في مؤلفه هذا؟ أو بالأحرى كيف كان ينظر ابن حزم إلى المرأة؟

1-لمحة موجزة عن ابن حزم وكتابه

يعد أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم(**384-456هـ/ 997-1064م**)، من أجل علماء الأندلس وأدبائها، ينحدر من أصول فارسية، أمّا انتسابه العربي فيكون بالولاء، ولد ونشأ

بقرطبة»(**الحميدي،م. دت:290–293**)، ينتمي إلى أسرة ذات عز ومال وجاه؛ فقد كانت لهم رياسة في الإدارة وتدبير المماليك (**ابن الخطيب،ل،ج4. 1977: 111– 116**).

تعددت الروافد العلمية التّي نهل منها ابن حزم تعليمه؛ فقد تلقى المبادئ التعليمية الأولى في الوسط الذي عاش فيه على أيدي النسوة اللائي علمنّه القرآن وكثيرا من الأشعار ودرّبنه على الخط (**ابن حزم،ع، ج1. 1987:166**)، ثم أخذ العلم عن بعض المشايخ كالقاضي يونس بن عبد الله، وأبي بكر بن حمام بن أحمد القاضي، وأبي عمرأحمد بن محمد بن الجسور (**ابن بشكوال، أ،ج2. دت:605–606**)، وقد ساعدت هذه القنوات المعرفية المختلفة والمتعددة في تكوينه تكوينا علميا أشاد به ابن بسام (ت**524**هـ/ **1147**م) قائلا:»...كان حافظا لفنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة...». درس المذهب الشافعي ثم ما لبث أن مال إلى القول بالظاهر (**ابن بسام،ع، ج1. 1997: 167–180**)، وله في بعض تلك الفنون تآليف منها: الإيصال إلى فهم الخصال، وكتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل، وكتاب الإجماع ومسائله على أبواب الفقه (**ابن الخطيب، ل،ج4. 1977: 111**) ومجموعة من الرسائل جمعت في كتاب يحمل عنوان رسائل ابن حزم، منها رسالة طوق الحمامة في الألفة والألاف.

يندرج هذا الكتاب ضمن حقل الأدب، وهو عبارة عن رسالة ألفها للإجابة عن صديق له تصدى فيها لدراسة النفس الإنسانية

فيما تحب وتألف، ولذا ذكر أنّ موضوعها الألفة والألاف، بقوله: «...وكلّفتني أعزك الله أن أصنف لك رسالة في الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ومايقع فيه...(**ابن حزم،ع، ج1. 1987:87**)»؛ فهي دراسة حقيقية في الحب والمحبين (**آربي، ر، عدد15. 1988:40**)، ويبدو أنّه صنفها وهو مقيم في شاطبة حوالي(**418هـ/ 1027م**)؛ إذ يشير فيها إلى اعتداء الموفق أبي الحسن مجاهد صاحب الجزر على خيران صاحب المرية وكان ذلك في ربيع الثاني عام(**417هـ/ 1026م**)، وكانت شاطبة حينئذ تحت حكم «مبارك» و«المظفر» العامريين (**خليفة،ع. دت:187**).

تتميز الرسالة بمنهجها القائم على المزج بين الفلسفة والنصوص الإسلامية؛ إذ يظهر اعتماد ابن حزم على الفلسفة في التعريف، ثم تزكيته بنصوص من القرآن الكريم، وهذا يعكس ثقافته الدينية الواسعة، والظاهر أنّ المؤلف لا يكتف بهذا المنهج فقط وإنّما يسترسل في التحليل مع ذكر العلل وتقديم النتائج، وذلك وفق مارآه أو مما أخبر به وصدقه (**أبوزهرة، م. دت: 163-168**)؛ إذ يذكر ذلك بقوله:»...التزمت في كتابي هذا الوقوف عند حد الإقتصار على مارأيت أو صح عندي بنقل الثقات...»(**ابن حزم،ع،ج1، 1987: 87**). وتتميز أيضا بدقة التنظيم وحسن التبويب، فضلا على أنّ أسلوبها أجمل وأرشق ولاغريب في ذلك؛ فقد عد الرجل من فطاحل الشعراء والأدباء بشهادة ابن خاقان :»...له في الأدب سبق لا ينكر وبديهة لايعلم أنّه روى فيها، ولا فكّر وقد أثبت من شعره

مايعلم أنّه أوحد وما مثله فيه أحد...»(**ابن خاقان، ف. 1983**:**280**).

أمّا عن أهميتها؛ فإنّها تكتسي أهمية بالغة إذ سيحظى القارئ لها بكم من المعلومات التاريخية وبعض القيم السياسية والاقتصادية والثقافية المبثوثة في متنها، وهي معلومات جديرة بالإهتمام والوقوف عليها؛ فهي تعد مصدرا أساسيا لدراسة الحياة السياسية الأندلسية؛ حيث واكب ابن حزم الأحداث السياسية التّي ظهرت على ساحتها كالفتنة التّي ألمت بقرطبة، وعهد الطوائف، أمّا في المجال الاجتماعي فتكشف لنا عن نواح مهمة من المجتمع الأندلسي بمختلف فئاته وعاداته وتقاليده وظواهره أثناء القرن الخامس الهجري / ق**11**م، وتكشف لنا من الناحية الاقتصادية عن بعض الأنشطة الممارسة آنذاك كالحرف والمهن،كما أتّها تحفل بجملة من أسماء المدن والأبواب والجوامع والأسواق، وهي بطبيعة الحال ذات أهمية قصوى للدارسين في مجال العمران الأثري، أمّا إذا ما إتجهنا للخوض في المجال الثقافي، فقد زودتنا بمعلومات ومعطيات في غاية الأهمية عن الحياة الفكرية والأدبية في عصر مؤلفها(**ابن حزم،ع، ج1. 1987**: **121**-**123**-**140**-**151**-**156**).

2-ابن حزم والمرأة

إنّ المتصفح للإنتاج الذي خلفه ابن حزم الأندلسي يدرك أنّ موضوع المرأة شغل حيزا هاما منه، إذ أولاها اهتماما وأعطاها

حقها في البنية الاجتماعية؛ فمن خلال كتابه «رسالة في أمهات الخلفاء» التي تضمنت أسماء لأمهات الخلفاء بدءا بالرسول عليه الصلاة والسلام وانتهاء بوالدة المستكفي(حكم في **416**هـ/ **1020**م) يتضح لنا اهتمامه بها كأم (**عويس،ع**. **1988**:**297**)، ويظهر اهتمامه بها كذلك في كتابه «نقط العروس في تاريخ الخلفاء»؛ فكلما ذكر خليفة إلاّ وذكرت معه بصفة الأم أو الزوجة ومايتعلق بها من معلومات، وعالج من خلال كتابه»طوق الحمامة في الألفة والألاف»قضاياها في صورها المختلفة؛ فتعددت الصور التّي رسمها عنها (**خليفة،ع**. دت:**213**)، ومرد ذلك إلى خبرته بالنساء؛ إذ استطاع منذ نشأته أن ينفذ إلى دراسة طبائعهن والوقوف على أخبارهن وقصصهن لقوله:»...ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لايكاد يعلمه غيري لأنّي ربيت في حجورهن ونشأت بين أيدهن...»، ويبدو أنّ ابن حزم لم يشذ عن القاعدة التّي اعتبرت المرأة ضعيفة وغير قادرة على تحمل أعباء الحياة القاسية رغم نظرة الإجلال التّي خصها بها، ويتضح ذلك من خلال المقارنة التّي عقدها بينها وبين الرجل في قوله:» ...متفرغات البال من كل شيء، إلاّ من الجماع ودواعيه والغزل وأسبابه...لا شغل لهنّ غيره ولا خلقن لسواه، والرجال مقتسمون في كسب المال وصحبة السلطان...ومكابدة الأسفار...وملاقاة الفتن وتحمل المخاوف...» (**ابن حزم،ع**، ج**1**. **1987**:**165**-**166**)، وهو بذلك لايخالف نظرة مجتمعه في سيادة العنصر الذكوري، كما يصور لنا حياتها التّي تدور في فلكه ولا تستطيع الإبتعاد عنه، ولا غرابة في ذلك فالكتاب يتحدث عن الحب الذي يكون أحد طرفيه الرجل وبالتالي يرد الكلام عنها مقترنا به فقد جسدت

الزوجة والحبيبة، وإنّ قراءة تحليلية لهذه الرسالة تحيلنا إلى أوصافها الجسمية والأخلاقية، زيادة على موقعها الاجتماعي بصفتها حرة أو جارية، وأخيرا أدوارها.

3-المرأة بين الوصف الجسدي والخلقي:

يمكننا من ثنايا القصص التّي أوردها المؤلف عن المرأة، أن نستشف بعض صفاتها الجسدية كالقصر والطول والوقص (ذات العنق القصير)، وذات الفم الفوه(الكبير) غير أنّ أهم صفة جسدية تمتعت بها هي الجمال الذي ورد ذكره في أكثر من موضع وصفي بحيث تحدث عن إحداهن أنّها ذات جمال بارع، وفي السياق نفسه وصف أخرى بأنّها رائعة جميلة، في حين أعجب بإحداهن؛ فقال عنها:»..غاية في حسن وجهها...»، وهذا الأمر يدفعنا للقول أنّ الأندلسيين قد عنوا بالجمال وفتنوا به، وها هو ابن الخطيب (ت**776**هـ/ **1374**م) يصف لنا جمالهنّ قائلا»...وحريمهم حريم جميل موصوف بالسحر وتنعم الجسوم وإسترسال الشعور ونقاء الثغور وطيب النشر...»(**ابن الخطيب، ل، ج1. 1977**:**141**)، ومما يمكننا أيضا أن نستشفه من ثنايا تلك القصص سنها الذي تباين بين الفتاة، ودون ست عشرة، والعجائز اللواتي أشار إليهن بذوات العكاكيز والتسابيح.

وفي السياق ذاته يتبين لنا أنّ مقياس الجمال ارتبط في منظورهم بالمرأة الشقراء التّي فضلت عن غيرها من عامة المجتمع وخاصته

حتّى أنّ خلفاء بني أمية جبلوا على تفضيلها، بل وتغزل بها عبد الرحمن الناصر(**350-366هـ/ 961-976م**)، زيادة على أنّ ابن حزم نفسه قد أعجب بجارية شقراء في صباه ومما قاله فيها:

يعِيبُونَهَا عِنْدِي بِشُقْرَةِ شَعْرِهَا فَقُلْتُ هَذَا اَلَّذِي زَانَهاعِنْدِي

وهذا الأمر يعكس ذهنية وعقلية أفراد المجتمع وتعلقهم بجمال الجسد المرتبط بالمتعة، دون إهمالهم للأوصاف الأخلاقية، التّي أخذت هي الأخرى نصيبها من اهتمام المؤلف؛ فأمدنّا بمجموعة من القيم تراوحت بين ما هو حميد وذميم؛ فمن صفاتها الحميدة ما اقترن بالأمانة والوفاء وكتمان السر، في حين تمثلت صفاتها الذميمة في الغدر بالعهد والغيرة والوشاية، وصادف أحيانا أن جمعت المرأة بين الصفات الجسدية والأخلاقية مثل امرأة تدعى عاتكة لم ير في جمالها وكريم خلالها ولم تأت الدنيا بمثلها في فضائلها.

يتعمق ابن حزم أكثر في وصفه للمرأة فيميز لنا بين المرأة الصالحة التّي إن أبعدت عن الذرائع لم تمل إلى الهوى وكذلك التّي صانت كرامتها وأبت الحرام، والمرأة الفاسقة التّي كانت مودتها في غير ذات الله(**ابن حزم، ع، ج1. 1987:91- 130-131-141-164-165-207**)، وإنّ هذه الإزداوجية في صفاتها ما هي في الواقع إلاّ إنعكاس للإزدواجية التّي ميزت المجتمع آنذاك؛ فظهر الورع والتقوى والزهد من جهة والفساد والإنحراف من جهة أخرى، وهو ما عبر عنه ابن عبدون قائلا:»...وبالجملة فإنّ النّاس قد فسدت

أديانهم...وإنّما الدنيا فانية والزمان على آخره...»(**ابن عبدون، م. 1955:46**)، ويبدو أنّ ما أصاب المجتمع الأندلسي من انحلال وفساد أخلاقي قدألقى بظلاله عليها باعتبارها عنصرا طاله التأثير.

4-الموقع الإجتماعي والمكانة:

لا يخامرنا شك في أهمية كتاب طوق الحمامة في الكشف عن واقع الحياة الاجتماعية في الأندلس، غيرأنّ هذا الكشف يبقى محدودا ومقتصرا على فئة اجتماعية معينة وهي الفئة الميسورة كالبيت الحاكم والمقربين منه وبعض الأسر الغنية التي زيادة على مقامها الاجتماعي الرفيع كانت تملك ثروة وجاه وخدما، ويبدو أنّ مثل هذه المؤشرات قد تحكمت في تحديد المركز الاجتماعي والإنتماء إلى هذه الفئة أو غيرها(**بن عبود، أ. 1983: 18**) وإذا ماتحدثنا عن وضعية المرأة وموقعها الاجتماعي في القرن الخامس الهجري/ ق**11**م لانخرج عن هذا الإطار سواء كانت حرة ذات منصب عالي أو جارية مملوكة؛ فالأحداث التّي يستشهد بها مؤلفنا إنّما غالبا تتم في قصورهم ومنازلهم وهي بلا شك صورة عن حياة الترف والنعيم التّي عاشتها في تلك القصور(**ابن حزم،ع،ج1. 1987:123-165**)، في حين لا يطلعنا إلاّ قليلا عن بقية الفئات الأخرى المتوسطة والعامة، ووضعية المرأة داخلها حيث عانت من الفتنة وآثارها النفسية والاقتصادية والاجتماعية وتحملت تبعاتها، وإنّ غيابها هذا يطرح إشكالية تغيب حضورها وأدوارها ضمن المنظومة الاجتماعية.

يجرنا الحديث عن المرأة الأندلسية ووضعها الاجتماعي إلى الحديث عن الجواري اللائي هيمن على الحياة الاجتماعية وأثرن في قلبها، وما تكرر لفظ جارية في إحدى وثلاثين موضعا مختلفا من الكتاب إلاّ دليلا واضحا على مكانتهن باعتبارهن فئة من الفئات المكونة لحركية المجتمع، لها نشاطها ووضعيتها وأدوارها.

وتبرز لنا من خلال الكتاب ظاهرة الإقبال على اقتناء الجواري من طرف الخاصة والعامة على حد سواء، وارتبط هذا الإقبال بعاملين الحاجة إلى خدماتهم من جهة وما يتوافق ومستوى ثرائهم من جهة أخرى؛ حيث أضحى إقتناؤهنّ أحد مظاهر الغنى والترف ودليل رمزي على السلطة، ونجد نموذج عن ذلك عند أبي عامر المحدث الذي كان دؤوبا على شراء الجواري حتّى أتلف في ذلك عشرات ألوف الدنانير عددا عظيما (**ابن حزم،ع، ج1. 1987:199**). وما من شك أنّ أثمانهن كانت مرتفعة خاصة إذا أحسنت الجارية فنونا متنوعة من علم وخط وشعر وغناء؛ فقد دفع هذيل بن رزين صاحب السهلة ثلاثة آلاف دينار في جارية كانت واحدة القيان في وقتها من حيث الجمال وطيب الغناء وجودة الكتابة والمعرفة بالعلوم (**ابن بسام،ع، ج1. 1977: 320/ عباس، ا. 1997:34**).

ويبدو أنّ كثرتهن في المجتمع و الإقبال عليهنّ أفرز لدى أفراده خبرة بتعدد أجناسهنّ ونوعية العمل المنوط بهنّ؛ فكانت الخادم البربرية للذّة، والرومية لحيطة المال والخزانة، والتركية لإنجاب الولد،

والزّنجية للرضاع، والمكيّة للغناء، والمدنّية للشكل، والعراقية للطرب (**السقطي، أ، دت**:**57**).

ولايفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى الحرية التّي تمتعت بها الجواري بحيث استطعن الولوج إلى مجالس الرجال(**فيغيرا، م.1998**:**995**) لاسيما المغنيات اللواتي أضفن على مجالسهم أنسا وطربا لما إمتلكنّه من حذق في الغناء والعزف على العود، ويصف لنا ابن حزم مجلس ضم بعض أكابر الملوك وأركان الدولة انتهى فيه الغناء إلى إحدى الجواري التّي سوّت عودها واندفعت تغني (**ابن حزم،ع،ج1 .1987**:**135**–**249**).

وبالإضافة إلى ماسبق ذكره، لابأس أن ننوه بالمنزلة العظيمة التّي تبوأهنّ لدى أسيادهنّ؛ فأصبحن محظيات وكرائم مثل «ضنى» إحدى كرائم المظفربن الأفطس، بل والأكثر من ذلك إرتقين وأصبحن زوجات لأمراء وخلفاء وأمهات لأولادهن»كالجارية البشكنسية صبح(Aurora) أم هشام المؤيد بالله(حكم **366**–**400**هـ/ **876**–**1013**م)، ولاشك أنّ مثل هذه المكانة ستضمن لهن الإستقرار وستزيد في حظوظهن في العتق والزواج (**عزالدين، ج. 9**:**2006**)، زيادة على دورهنّ المؤثر في دواليب السياسة والحكم، وإن كان بعضهن قد أكرمنّ بهذه المنزلة؛ فعلى النقيض منه تماما تعرضت أخريات إلى سوء المعاملة بلغت أحيانا الضرب سواء من بني جنسهنّ أو من الرجال كالجارية التّي أذاقتها سيدتّها أنواع الضرب والإيذاء مالا يصبر على مثله جلداء الرجال ومثلها في

ذلك جارية ضربها سيدها غير مرة وأوقع بها الأدب (**ابن حزم،ع،ج1 ،1987:165–208**).

ولا تشير نصوص الكتاب إلى تفاوت منزلتهن الاجتماعية وحسب وإنّما تشير أيضا لأنواعهنّ، ووفق ماورد فيه يمكننا تصنيفهنّ إلى صنفين:

أ–جواري اللذة والنسل:

هنّ جواري اتخذن للمتعة والتسلية؛ حيث يقمن بتسلية أسيادهنّ وينشرن المرح والمتعة في بيوتهم، وقد تكون تلك المتعة إمّا حسية لاسيما اللواتي يتقن الغناء والضرب على العود والشعر والأدب والرقص أو متعة جسدية (**عزالدين،ج.2006: 5**)، ومن الواضح انّهنّ يثقفن ثقافة خاصة ويؤدبن أدبا رفيعا يؤهلهنّ لعملهن هذا؛ ويتم ذلك على أيدي معلمين متخصصين كالمعلم محمد الكتاني المتطبب الذي كان متخصصا في تعليمهن الكتابة والإعراب وغيرها من فنون الأدب، ثم يبيعهن بأغلى الأثمان(**ابن بسام، ع، ج3. 1977:320**)، ومما يدل على اتخاذ جواري اللذة ما أشار إليه المؤلف عن فتى من أهل الحسب والأدب كان يشتري الجارية للتسري والجماع، ويشير في موضع آخر عن جارية رامها سيدها أن يضمها إلى فراشه مع سائر جواريه (**ابن حزم،ع، ج1. 1987:127–208**). ومن القرائن الدالة أيضا على وجود هذا النوع هي تلك الشروط التّي وضعتها النساء في عقد النكاح ألاّ يتزوج

عليهن بعولتهن ولا يتسرون(**بوتشيش، إ.1993: 27**)، ونلاحظ أنّ ابن حزم جمع بين اللذة والنسل إذ توطء جارية التسري وتلد وبذلك تصبح أم الولد، الأمر الذي يكسبها استقرار لدى سيدها ؛ فلا تباع ولا تشترى.

ب- جواري الخدمة:

نكاد نلمح هذا النوع من الجواري في إشارات قليلة متناثرة هنا وهناك، حيث ورد ذكرهنّ بصيغة الخدم ويفهم من حديثه عن جارية رضيت بالخدمة، وخرجت عن المتخذات للذة والنسل وجود مثل هذا النوع وقد استخدمنّ للقيام بالأعمال المنزلية وتربية الأطفال، ومن بين المهام التّي أوكلت لهنّ أيضا خدمة الولائم التّي كانت تقام في القصور، بحيث يصور لنا ابن حزم عما كان في دارهم من الخدم في وليمة جمعت بين دخلته ودخلة أخيه، (**ابن حزم،ع،ج1. 1987: 249**).

ويعوزنا معرفة مميزاتهنّ وصفاتهنّ، ولعل هذا الأمر راجع إلى تدني مستواهن مقارنة بنظيراتهن اللاتي إرتقين إلى مستوى المحظيات أوأمهات الولد، ولايستبعد أن يكن ممن جاوزن سن الشباب أو عدم ملاءمتهن للمتعة والتسلية، أو ممن ذهب جمالهن؛ فأحيلن للخدمة(**توفيق،ع. 2010:119**)، ويصف لنا المؤلف الحالة التّي آلت إليها جاريتهم بعد الفتنة وجلائهم عن ديارهم بقوله:»...ذهبت نضارتها، وفنيت تلك البهجة إلى غاية قوله...لتبذلها في الخروج فيما

لابد لها منه مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك...»(**ابن حزم، م، ج1. 1987**: **252**–**253**)، كما لا يستبعد أن يكن كذلك من السودانيات المجلوبات من السودان والحبشة فقد كانت جارية ابن قزمان (ت**555**هـ/ **1159**م)»**زاد المال**» من السوداوات(**عز الدين،ج. 2006**: **34**)، خاصة وأنّ أسعارهن كانت منخفضة وفي متناول الفئة الوسطى (**عبد الحميد، ر. 2006**: **186**).

تمتعت المرأة الأندلسية بصفة عامة بنوع من الحرية؛ فقد عرفنا من الأخبار التّي رواها المؤلف أنّها كانت صاحبة القرار في زواجها مثل ماوقع لسعيد بن منذر الذي أبت جاريته الزواج به بعدما أعتقها وتزوجت من أخيه حكم بن منذر، ومن المظاهر التّي تجسد لنا حريتها أيضا خروجها للمنتزهات والأسواق(**ابن عبدون، م .1955** :**33**–**35**)، بحيث عرف باب العطارين بقرطبة على أنّه موضع لتجمع النساء، ولم تقتصر تلك الحرية على الخروج فقط وإنّما شملت أيضا الكشف عن مشاعرها لمن تحب ومراسلته والجلوس معه، وهذا يؤكد على أنّها مارست الحب والغزل بصراحة تامة، متحررة من أية قواعد وضوابط دينية واجتماعية، ويحفل الكتاب بمثل هذه التجارب التّي تعكس فلسفة الحب والعاطفة عندها، غير أنّ هذه الحرية تكاد تكون مقصورة على الجواري إذ أنّ الحرائركن محجوبات وهو ما يتضح من قوله عن امرأة أنّها سرية النشأة، عالية المنصب، غليظة الحجاب (**ابن حزم،ع، ج1 .1987**: **117**–**123**–**232**).

ثم إنّ هذه الحرية التّي تمتعت بها جعلتها أحيانا تقع في بعض المنكرات والمحظورات الشرعية كإرتكابها الزنا وقتل المولود خوفا من الفضيحة والعار (**ابن رشد، أ،ج2. 1993: 1243**) وخروجها متبرجة بأنواع من الزينة البادية، وإستعمال منتشر الطيب، وإستظهار ما يستدعي الفتنة (**الونشريسي، أ،ج2. 1981: 499**) ومعاكستها من طرف الرجال، أو إمكانية العلاقات الجنسية قبل الزواج مع الحفاظ على العذرية وهو مايفهم من أمثالهم»**بوس وأقرص وخلي موضع العروس**»(**الزجالي، أ، ق2. دت:132**)، بالإضافة إلى زواج المتعة الذي عد من أشكالها أيضا (**ابن رشد، أ،ج2. 1993: 1117/ الونشريسي، أ،ج4. 1981:459**) ولعل وعي الأهل بخطورة هذا الأمر جعلهم يبادرون إلى تزويج بناتهنّ إحصانا لهنّ وصيانة لأعراضهنّ (**مجهول**. دت:**53-57**)، والحق أنّ مثل هذه السلوكات تعكس طبيعة الأحداث الجارية في الواقع الاجتماعي والمناخ الفكري.

وفي إطار المحافظة على الآداب العامة ومحاولة إصلاح السلوك الاجتماعي، سعى المحتسب إلى سن قوانين واتخاذ أساليب تتميز بقدرتها على الجمع بين الحرية والضبط، منها منعهنّ من دخول الكنائس تحسبا من أي غرض مشبوه، ومنع الرجال من الجلوس أمام الحمامات العامة المخصصة للنساء لما في ذلك من اطلاع عليهنّ(**ابن عبدون**، م. **1955:48-49**)، فضلا عن منع إختلاطهم ومراقبة المواضيع الخالية في الأسواق حتّى لا يختلي بها الفساق من النساء والرجال (**ابن عبد الرؤوف، أ. 1955 :83**).

ويقتضي الحديث عن المرأة أن نشير إلى زيها ولباسها، ولا يقدم لنا ابن حزم الكثير عن هذا الموضوع إلاّ في إشارة عن جارية ترتدي رداء حريريا له قيمة(**ابن حزم،ع، ج1. 11987: 187**)، ولا يستبعد أن تكون المرأة قد إتخذت ملابس عديدة تتلاءم وطبيعة جسمها، واهتمت أيضا بحسن مظهرها ويبدو أنّ أناقتها خضعت للمستوى الحضاري الذي عرفته الأندلس إلى جانب حالتها الاجتماعية ومستواها المعيشي؛ فتفننت في لبس المصبغات والمذهبات والديباجات من الملابس (**ابن الخطيب،ل، ج1. 1977:141**)، كما أنّها استخدمت أدوات للزينة كأن تصبغ شعرها بالسواد والشقر، وتتكحل بالأثمد، وتتحلى بأنواع من الذهب والنفائس، إلى جانب التطيب بالعطور نظرا لتقدم صناعتها(**بوتشيش، ا. 1993:54**)، بحيث خصص لها موضع عرف بباب العطارين بقرطبة الذي كان موضعا لتجمع النساء (**ابن حزم،ع، ج1. 1987: 121**)، ويظهر أنّ المرأة الأندلسية بالغت في الإعتناء بجمال جسدها إلى درجة مخالفة الشرع وارتكاب بعض البدع المحرمة كافطارها شهر رمضان بغير عذر شرعي حفاظا عليه(**الونشريسي، أ،ج2. 1981:487**).

5-أدوارها

اضطلعت المرأة في ظل الحرية التّي تمتعت بها ببعض الأدوار الهامة، برهنت من خلالها على وزنها وقدرتها في توجيه الأحداث في مختلف الميادين و من تلك الأدوار نذكر:

أ- **الدور الإجتماعي**:

من البديهي أن تأخذ المرأة مركزها في الموقع الاجتماعي، نظرا لأهمية دورها في هذا المجال فهي عماد الأسرة والركيزة الأساسية لبناء المجتمع، ولا يختلف إثنان في أنّ طبيعتها كزوجة وكأم جعلت عملها ينحصر داخل البيت، ويقتصرعلى القيام بالشؤون المنزلية،كخدمة الزوج والإنجاب والرعاية(**فيغيرا،م،ج2. 1998:1001-1007**)، وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الأعمال إنّما قامت بها المرأة في الأوساط الشعبية في حين أنيطت في الأسر المترفة للخادمة، وكثيرا ما عانت من شظف العيش مما حدا بها لمساعدة زوجها في توفير القوت من خلال توليها بعض الأعمال كبيعها للبن (**ابن سعيد،م، ج2. دت: 409**)، وهذا ما يكشف لنا عن العروة الوثقى التّي تمسكت بها المرأة، محققة أسمى صور الحياة الزوجية والتعاون على صروف الحياة بسرائها وضرائها(**علي حسن، إ. 1963: 4**).

وللمرأة دور فعال يتعدى نطاق الأسرة ليشمل المجتمع برمته ولعل أبرز مجال تؤثر فيه هو مجال الإصلاح؛ إذ تتحمل الوزر الأكبر منه؛ فعلى عاتقها تتم عملية التنشئة الصحيحة، وبذلك يكون صلاح المجتمع مرهون بها وبما تقدمه من نشء صالح، ويظهر من أمثالهم»**من ربا صغير ما يندم**»(**الزجالي، أ، ق2. دت:321**) أهمية التربية الأخلاقية الصحيحة التّي تكفل أفرادا ذوو شخصية سوية (**عباس، ص. 1993:89**).

ولما جعل الإسلام نظام التكافل الاجتماعي مبدأ أساسيا، وطريقا يتسابق إليه من أراد التقرب إلى الله ونيل رضوانه، أقبلت

المرأة إلى إنفاق أموالها في وجوه البّر والإحسان ليستفيد من منفعتها ذوو الحاجات وتسهم في تنمية المجتمع، ويضم الكتاب في طياته صورة بديعة عن إمرأة وصفها بالنسك والإقبال على الخير ومن أعمالها الخيرية تزويج يتيمة، أو إعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة (**ابن حزم،ع، ج1. 1987**: **165**).

ويتضح لنا من بعض النوازل ما قدمه العنصر النسوي من خدمات جليلة في هذا المجال، ومن بين الأمثلة التّي نسوقها في هذا المقام، قطعة الأرض التّي تصدقت بها إمرأة لأحد أقاربها، وما تصدقت به زوجات بعض الأمراء بقرطبة على المساكين (**الونشريسي، أ،ج9. 1981**: **166**)، وإنّ إقبالها على مثل هذه الأعمال يعكس وعيها واضطلاعها بوجود بعض الفئات المعوزة، وينم في نفس الوقت عن سعيها في بناء مجتمع متكامل يكفل محاربة الفروق ويحافظ على قيمه.

ب-الدور الإقتصادي

سما الإسلام بالمرأة في أن أعطاها حرية التصرف التام في مالها وأملاكها وحفظ لها حقها الاقتصادي في الملكية والإرث، فضلا عن حقها في التصرف بالعقود والوصايا ومكنها من إدارة تجارتها والسيطرة المستقلة على شؤونها المالية(**السيد، ك. 1997**: **20**)؛ فقدكان لإمرأة حصة معلومة في رحى، وكان لإحداهنّ أيضا أملاك بجهة من الجهات بإشبيلية(**ابن رشد، أ،ج1. 1993** : **160-237**)،

ويتضح لنا من متن الطوق المكانة الاقتصادية التّي بلغتها المرأة في حديثه عن إحداهنّ واصفا إيّاها بالموسرة وذات جوار وخدم، وفي إشارة أخرى أطلعنا عن بعض المهن والصناعات التّي إمتهنتها وأسهمت من خلالها في الحياة الاقتصادية؛ فظهرت في عدة صور منها: المدرسة والمربية لأبناء الفئات العليا، والطبيبة، والحجامة، والدلالة، والماشطة، والمغنية؛ فالصانعة في المغزل (**ابن حزم،ع، ج1. 1987:142-165**)

والظاهرأنّ مهنة الغزل والنسيج كانت من أكثر المهن ممارسة من المرأة لملاءمتها لطبيعة جلوسها لفترات طويلة في بيتها من جهة وللإنفاق على أسرتها من جهة أخرى(**عبد الحميد،ر. 2006: 173**)، وإلى جانب غزل الصوف غزلت أيضا القطن والكتان، غيرأنّ عملها أحيانا تخلله بعد التدليس والغش مثل رش ماتصنعه من الغزل بالماء ليزيد وزنه(**ابن عبد الرؤوف، أ. 1955:55-87**).

وكان من الطبيعي أن تبرز المرأة في مجال صناعة الأطعمة والأشربة، بحيث تفننت في إعداد أنواع الطعام وصنوفه ولايستبعد أن تكون خادمات القصور»الطاهيات» قد أتقنها، بحيث عدت من إختصاصهنّ لخدمة الولائم (**عبد الحميد، ر. 2006:172**)، والظاهر أنّ المجتمع الأندلسي لم يمانع عمل المرأة غير أنّه تحفظ على بعض المهن، كمهنة متقبل الفنادق بحيث إعتبرها المحتسب عين الزنا(**ابن عبدون، م.1955: 37**)، وهذا التحفظ يحلينا إلى مدى محافظة المجتمع الأندلسي على المرأة وصيانتها، ولايمكننا في هذا المضمار إغفال تجارة الجواري ومالها من تأثير عميق على النشاط

الاقتصادي، بحيث اكتظت بهنّ الأسواق، وعدنّ مصدر ثراء لفئة من التّجار(**الدغلي، م.1984: 44**).

ج- الدور الثقافي

لعبت المرأة دورا بارزا في المجال الثقافي لا يقل أهمية عن نظيريه الاجتماعي والاقتصادي، ويعطينا المؤلف أفضل مثال عما بلغنه من علم وثقافة في حديثه عن النسوة اللائي علمنّه القرآن وحفظنّه الأشعار ودربنّه على الخط(**ابن حزم ،ع، ج1. 1987:166**)، ومن هنا تتجلى لنا مكانتها فيما نالته من علم في ضروب مختلفة، مما أهلها لترتقي إلى منصب المعلمة والمدرسة.

وإذا كانت الجارية ولأسباب اقتصادية تلقت الكثير من التعليم؛ فالمرأة الحرة نالت هي الأخرى قدرا كافيا من التعليم، كفل لها مشاركة فعالة في النشاط الثقافي بكل ألوانه المعروفة على أيّامها، وليس بقليل عدد أولئك اللائي بلغن شهرة واسعة لدورهنّ في مجال العلم أو مسجالتهن الرجال في قرض الشعر (**بوفلاقة، س.1995:26**).

وهذا ماعبر عنه المقري(ت**1041**هـ/ م) بقوله:»...فقد رأيت أن أذكر جملة من نساء أهل الأندلس اللائي لهنّ اليد الطولى في البلاغة كي يعلم أنّ البراعة في أهل الأندلس كالغريزة لهم حتّي في نسائهم» ولايكتف المقري بهذا وإنّما يذكر لنا غير واحدة منهنّ، مثل حسانة التميمية التّي تأدبت وتعلمت الشعر، وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح، التّي إلى جانب نظمها الشعر عملت

الموشحات(**المقري،أ،ج4. 1988:166-167**)، ولاعجب أن يحفظ لنا التاريخ اسم شاعرة كولادة بنت المستكفي إذكانت واحدة أقرانها، وكان مجلسها بقرطبة ملعبا لجياد النظم والنثر(**ابن بسام،ع،ج1، 1997: 429-430**).

ويتجلى التأثير القوي للمرأة في الحياة الأدبية في كثرة القصائد التي نظمها الشعراء الأندلسيون فيها مدحاً وتغزلاً ورثاءً وهو ما يدل على عظيم المكانة التي تبوأتها، مهما اختلفت منزلتها الاجتماعية، وبالعودة لكتاب طوق الحمامة نجد الكثير من النماذج الشعرية التّي قيلت فيها أو ما قالته هي مجسدة بذلك صورة الشاعرة الجريئة التّي لا تكتف بالتلميح دون التصريح، ولا بالإشارة دون الإعلان عند تغزلها بالرجل وأخذها بزمام الأمور.

ولم تبرز المرأة في ميدان الشعر فقط وإنّما برزت أيضا في مجالات معرفية أخرى كعنايتها بعلم القراءات وما يتصل به من قراءة القرآن مثل ماورد في الطوق عن إمرأة كانت حافظة لكتاب الله وناسكة(**ابن حزم، م،ج4. 1987:165**) وكثيرا ما امتزجت قراءته بالألحان التّي اعتبرها الطرطوشي(ت**530**هـ/ **1126**م) من البدع (**الطرطوشي، م. 1990:83**)، زيادة على الفقه والحديث والحساب وغيرها من العلوم، ويتضح من نص محمد الكتاني المتطبب السالف الذكر يصف فيه تعليمه لجواريه قائلا:» ...في ملكي الآن أربع روميات كن بالأمس جاهلات وهنّ الآن عالمات، حكيمات، منطقيات، فلسفيات، هندسيات، أسطرلابيات،

معدلات، نجوميات، نحويات، عروضيات، أدبيات...وهنّ يتعاطين اعراب كل ما ينسخنه ويضبطنه فهما لمعانيه ولكثرة تكرارهنّ فيه...»(**ابن بسام، ع، ج3. 1977**:**320**)، أنّ العنصر النسوي نال حظا وافرا من التعليم أسهم من خلاله مساهمة فعالة في الحراك الثقافي آنذاك.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ كل محاولة بناء حضاري لأي مجتمع تقوم على أساس العلم لوجدنا أنّ دور المرأة المتعلمة والمثقفة هام جدا في هذا البناء بما تملكه من أدوات النهوض والتقدم، لذا لانبالغ إن قلنا أنّ المرأة الأندلسية قد ساهمت في صنع حضارة أندلسية متميزة.

خاتمة

وصفوة القول أنّ كتاب طوق الحمامة يحمل في ثناياه العديد من الصور التّي تسمح لنا بدراسة المرأة في البيئة الأندلسية،كما تسمح لنا بسد بعض الثغرات التّي تعتري تاريخها، والحق يقال أنّ ابن حزم ساهم بمؤلفه هذا في وضع مقاربة لصورتها ضمن المنظومة الاجتماعية من حيث مركزها وأدوراها التّي تعدت ماجبلت عليه لتتسع دائرة مهامها إلى الميدان الاقتصادي والثقافي، الأمر الذي بوأها مكانة سامية كانت إمتدادا لما خصها به الإسلام من شأن وما أسبغه عليها من نعم.

المصادر والمراجع :

أ-المصادر

-ابن بسّام، علي الشنتيري، (**1994**)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ج**1**.

-ابن بشكوال، أبو القاسم خلف الله، (**1989**)، الصلة، تحقيق، ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط**1**، ج**2**.

-ابن حزم، علي بن محمد(**1987**)، رسائل ابن حزم الأندلسي، رسالة طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط**2**، ج**1**.

-ابن خاقان، أبو نصر الفتح، (**1983**)، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح الأندلس، دراسة وتحقيق، محمد علي شواكة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط**1**

-ابن الخطيب، لسان الدين، (**1973**)، الإحاطة بأخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخناجر، مصر، ط**2**، ج**4**.

-ابن رشد، أبوالوليد، (**1993**)، مسائل ابن رشد، تحقيق ودراسة، محمد الحبيب التجكاني، دار الأفاق الجديدة، المغرب، ط**2**، ج**2**.

-ابن سعيد، المغربي(د.ت)، المغرب في حلى المغرب، حققه وعلق عليه، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ج**2**.

- ابن عبد الرؤوف، أحمد، (**1955**)، رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، نشرها ليفي بروفنسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في أداب الحسبة والمحتسب، المعهد الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة.

- ابن عبدون، محمد، (**1955**)، رسالة في القضاء و الحسبة، نشرها ليفي بروفنسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في أداب الحسبة والمحتسب، المعهد الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة.

– الحميدي، أبو عبد الله، (**1983**)، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق، ابراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية، بيروت، ط**2**.

–الزجالي، أحمد أبو يحي، (د.ت)، أمثال العوام في الأندلس، مستخرجة من ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام، تحقيق وشرح ومقارنه، محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، المغرب ق**2**.

–الطرطوشي، محمد أبو بكر(**1990**)، الحوادث والبدع، ضبط نصه وعلق عليه، علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط**1**.

–المقري، أحمد بن محمد، (**1988**)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ج**4**.

–الونشريسي، أحمد أبو العباس(**1981**)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب،

خرجه جماعة من الفقهاء بإشراك محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ج**2**، ج**9**.

–مجهول، (د.ت)، رسائل ومقامات أندلسية، تحقيق فوزي سعد عيسى، منشأة المعارف، الإسكندرية.

-Abu'Abdallah Muhammad B.Abi Muhammad As-Sakti, (1930), Un Manual Hispanique De Hisba, Texte Arabe, Introduction , par colin et lévi-provençal, Paris.

ب–المراجع

–أبو زهرة، محمد، (د.ت)، ابن حزم حياته وعصره–أراؤه الفقهية، دار الفكر العربي، القاهرة.

– الدغلي، محمد سعيد، (**1984**)، الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي الأندلسي، منشورات، دار أسامة، مصر.

- السيد كمال أبو مصطفى، ، (**1997**)، صورمن المجتمع الأندلسي في عصري الطوائف والمرابطين، من خلال نوازل ابن رشد القرطبي، من كتاب دراسات أندلسية في التاريخ والحضارة، مصر، مركز الإسكندرية للكتاب، ص. ص. (**4-45**).

- بوفلاقة، سعيد(**1995**)، الشعر النسوي الأندلسي أغراضه وخصائصه الفنية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

- بوتشيش، القادري ابراهيم، (**1993**)، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع-الذهنيات –الأولياء، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط**1**.

- بن عبود، امحمد، (**1987**)، جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، تقديم محمد المنوني، مطبعة النور، المغرب.

-توفيق، عمر ابراهيم، (**2010**)، صورة المجتمع الأندلسي في القرن الخامس الهجري(سياسيا واجتماعيا وثقافيا)، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن.

-خليفة، عبد الكريم، (د.ت)، ابن حزم الأندلسي، حياته وأدبه، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

- عباس، صباح، (**1993**)، الإنحرافات السلوكية، الأسباب والعلاج، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ط**1**.

-عباس، احسان،(**1997**)، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان.

-عبد الحميد شافع، راوية، (**2006**)، المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتّى سقوط قرطبة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط**1**.

-علي حسن، ابراهيم، (**1963**)، نساء لهنّ في التاريخ الإسلامي نصيب، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط**2**.

-عويس، عبد الحليم، (**1988**)، ابن حزم الأندلسي، وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط**2**.

-فيغيرا، ماريا، (**1998**)، أصلح للمعالي، عن المنزلة الإجتماعية لنساء الأندلس،» من كتاب سلمى الخضراء الجيوسي، «الحضارة العربية في الأندلس»، ط**2**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص. ص. (**995-1018**)،ج**2**.

ج-المجلات

-آريي، راشال، (**1988**)، ابن حزم والحب العذري، تعريب، محمد القاضي، مجلة دراسات أندلسية، تونس، العدد الأول، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر، ص. ص. (**40-63**).

د-الأطروحات

-عزالدين شبانة جانان(**2006**)، الجواري وآثرهنّ في الشعر العربي في الأندلس، رسالة ماجيستر في اللغة العربية وآدابها، قسم اللغة العربية، جامعة الخليل، فلسطين.